قصة قلب

انا الماضي

ابراهيم العريض

(١) بين عهدين

في الريف ... حيث تفسّر الغدران احلام الجبالِ
فتحسّ بين خريرها روحَ الطبيعة في ابتهـــال
وكأنما الليـــل الطويل بموكب الزُّهُر الغوالي
يروي الى الآفـــاق قصةَ عالم وشكَ اكتمال
ويكاد يهمسُ في الدجنّة كل نجم بالتتـــالي :
« نحن الحقيقة ، ما لجلوتنا حدودٌ ، كالخيال ! »
ويقطّر القمريّ عنـــد الفجر من خمر الليـــالي
حتى اذا شرعت بحاجبها ، تُطـــلّ من التلال
ألفيتَ كل فراشة عـــذراء تجنحُ للوصـــال
وكأنما وُزِنَ الصَّـــداق لها بحبـــات اللآلي
فاذا الطبيعة حفلة للعرس تفتن من رآهـــا ...

★

كانت تعيش لسمعها عـــذراءُ ، تنتظر الاناره
في يقظة كالحلم من عهد طوته على الطهـاره
فقدت أباها في الطفـــولة سيداً يحمي ذماره
مكنونةً في دلها القروي عن صقـــل الحضاره
كالدرّ غلّفه القـــذى عن إلفه وسط المحـــاره
كم جاء بالتحف الثمينة عمُّها من كل قـــاره
اذ كان يرحل — لا كوالدها المزارع — في التجاره
فتقبّلتهـــا بالسرور وقبّلتـــه للبشـــاره
ان المضيرة بين كفيها تَرجرجُ في الغضـــاره
ما ابرك العيـــدَ الذي في قربـــه تَقضي نهاره
والعم يرعى « يتمهـــا » عهداً يـــبرُّ به اباها

★

عذراء ... ان ضاقت بها الدنيا ، على سعة الرحابِ
من نُزلها الريفيّ تُحدق في الفضاء عـــلى اكتئاب
فهناك يفتن ناظريها البحرُ من ثَبج العبـــاب
في زرقـــة الافق البعيد كأنه لمـــح السراب
لا السيب يردعها ولا شوك القتاد ولا الروابي
عن ان تحـــوّل كل فجر خطوها نحو الهضاب
حتى اذا ما ذرّ قرن الشمس من خلف الضباب
تلعت — كخـط اسود بقبابها تحت السحاب —
تلك المدائن ، حيث يعمل عمها نضوَ اغـــتراب
فتودّ لو لحقت به ما بـــين هاتيـــك القباب
فتحلّ من دنيا الحضارة — كالغزالة — في سماها

★

خرجت تَخايلُ ذات يوم بين احضان الطبيعـــهْ
في ملفع بنكاتـــه كالليل اذ يوري شموعـــه
والعالم الانسيّ يشهـــد في مفاتنهـــا ربيعه
والطير ينشدها — كما تهـــوى — اغانيَه الوديعه
والعشبُ يثني ركبتيه حيالها ، ليُري خضوعـــه
والزهر يومىء نحوها فتميـــل شاكرة صنيعه
والماء يلقـــط كلما ظهرت له ، صوراً سريعـــه
مستجلياً في كل وضـــع فتنةً تحني ضـــلوعه
فتطيل من تسريح مُرْسَلِ شعرهـا فوق الشريعه
لكأنما هي تجتـــلي في العـــين مرآةً بديعـــه
فاذا بها في المـــاء تُبصِرُ وجه انسانٍ سواها

★

ما رآهـا إلا فتىً يبـــدو غريباً في المكانِ
يرنو اليها في مبلذِهـــا بخبثٍ ... وافتتـــان
هي وحدَها ، هو وحدَه ، والطير .. يصدحُ بالأغاني
فتحسُّ وخزاً ملءَ نهديْها ، وتجهـــلُ ما تُعاني
ماذا يريدُ ؟ وكيف جاءَ ؟ ولم تمرَّ سوى ثوان ..
وتراهُ يهتف باسمهـــا فاذا بـــه عـــذب اللسان
فكأن جمراً باتَ يلذعُ وجنتيْها — وهْوَ دان
قالت له « خلِّ الطريقَ ، فإن شأنك غيرُ شاني
قد عُذتُ بالرحمن منك ... » وأوغلتْ وسَطَ الجنان
وإذا به كالظلّ يتبعها و .... أوماً بالبَنان :
« لا تَعجلي ! انّي ابن عمّك ، قد ذكرتِني اشتِباها ! »

★

وتضمُّها في الليل حَجْلتُها على حزنٍ وعَبْرَهْ

فلقــد تغلغلها النعي وليتَهـــا لم تُسقَ مُرَّه
لِمَ مات عنها عمُّها من قبلِ ان تختالَ حُرَّه ؟
يا ليتَها حضَرتْه عنـــد وفاتِه ، فتطيلَ بِرَّه
وتضم ذاكَ الصدر — آه — وبالدموع تبَـــلُّ نحره
وتهيجُها الذكرى إلى هذا الصبـــاح وما أجرَّه
يا للفضيحة حين تذكرُ أين لاقتـــه ... مُسِره
لم تلقَه من قبلُ ، حَـــتى في ربيعِ العمر مرَّه
وهو الذي كانت تحـدّث نفسهـــا بهواه غِرَّه
أفبعدَ مَخبرِها تُراه يحبُّهـــا ... والحبُّ نظره ؛
لِمَ مات عنها عمُّها ، وهو الوليُّ عــلى صِباهـا ؟

★

وتَصُفّ بين يديه ، في البستان — من رُطبٍ جَنيّه
خَرفوه تحت لحاظِها لَقْطاً ... كأنفاس الرميّه
فتراه مبتسماً يغمغم وهو يَنعم في الهديـــه :
« صُبِّحتِ بالخيرات ... آنستي ! » فتطرق كالحييه
« ... هل عدتِ راهبةً ، توشحت السواد، من التقيه؟
لُبْسُ الحداد يزيد حسنك فتنة بين البريه ...! »
فتشيح عنــه بوجهِهـــا وتغض نظرتَها البريـــه
وتنمُّ عبرتُها — وقد رقَّتْ — على روحٍ زكيـه
« قُل لي — فديتك — . . عمي المرحوم . . هل أوصاك . . فيّه؟ »
فيسرُّ « . . أوصاني بحبك أنتِ . . أنتِ هي الوصيه . .
وسترحلين غـداً معي تؤتي جوانحنـــا مُناها ! »

★

حلّت مع الغـالي بمـنزله المقرمَـد بالمدينـــه
حيث القصور كأنها تنعى عـلى البـاني دبونـــه
حيث الصراعُ على الحياة ، ولا حياة بلا سكينـه
حيث الفناء على حقيقته ، وان واروه زينـــه
فترى الغنى والفقر كالفَيءِ الذي يمتدُّ دونـــه
حيث الكهانـــة للقوى وربحهـــا للحرب عينه
حيث الفنون كأنما توحي لصاحبها جنونـــه
فترى الجمال مـــع الفضيحة والكمال مع الضغينه
وترى الحضارة « نشوة » حتى « يقيء » المرء دينه
وترى الثقافة كلها في ان يحدثها مجونـــه
فتعلقت مثل الغريق بكل ما يطفـو .. شذاها

★

وأبَتْ عليه ان يُطِلّ عـــلى طلاسمها المِشدُّ
ان الحياء خدينها كيف السبيـــلُ لما يَوَدّ
في البيت ... ليس لما تقومُ به من البَدوات حد
لم يَحتفِلْ بوليمـــةٍ إلا وصادف ما يجِـــد
هل كان يبصَرُ — لو دنوا منها — سوى كُمٍ يُوَدّ
فيغيبُ تحت خِمارها شعرٌ غزير ... لو يُمـــد
ويبينُ خلف شفوفه عينٌ — إذا التفتَت — وخد
فحجابُها كسفورها ما من كلا الحالَـــين بُد
شتّان بـين حياتها وحياته — لعِبٌ وجِـــد
حتى تململ من تحفّظها ، وبانَ عليـه صـــد
ومضى لطيّـته ، ينفّس عنـه ... لو أغنى غِناها

★

قالت لدايَتِها « .. ابنُ عمي ، كيف اشرح ما اعتراه !
إني لأهواهُ ، ويأبى الله ان اهوى ســـواه
يا أمّ ! لا ادري أأقدر ان اسـايره خُطاه
شتّان بين نفوسنا لولا يكونُ ابي ابـــاه
ابـداً يماطـل بالزواج ولا يحقّـق لي هنـــاه
فأودُّ ان اسعى اليـه بكلّ ما فيه رضـــاه
لكن رضاه — ألا ترَيْنَ — يثير في حلقي شجاه
هو أُنسهُ في الليلِ ، حين يُلمُّ بالغاني كراه
فيظلّ منصرفاً إلى مُتع الغرور ... فلا أراه
وانا التي لا يستمرُّ بيَ النهـــار على قِلاه
كيف السبيل الى تملّكه ، ليرعاني انتباها ؟ »

★

ويجيئُها في ليلةٍ ثملاً ، فيجفـــل بالسِجافِ
وكأنما في لحظه ما غار من اثر السُـــلاف
فترنُّ في اعطافهـا اجراسُ وجدٍ غـير خاف
ورأت — لروعتها — يداً تمتدّ من فوق اللحاف
أتخونـه في نفسها ؟ ما كنزها غير العفاف !
فتحسُّ إحساس الفريسة وهي تجهد في انحراف
وتصيح « إنك قد جننتَ !. أما تخافُ ؟. ألا ينافي ؟
دعني العشيّة ... ربما أُفضي — غداً — لك باعتراف »
وتصدُّه ... فيظل يطرق كل بابٍ .. للتـلافي
حتى اذا ضاقت به الانفاس ... آذن بانصراف

ويعـود بعد ثلاثة فكأنه القـدر الموافي
وتنفّس الصعداء . كالمحموم من بعد اعتكاف

قال « انعمي عيناً ، فقد بُلّغت سؤلك بالتجافي
اني عقدت عليك ... يا غيري ... بمن يرعى خرافي
قومي لزوجك فهو منتظر » .. فتشهق للزفاف ..
ايسوقها سوقاً الى الرجل الذي هو من قراها ؟

★

(٢) افاقة من حلم

عادت الى ايامها في الريف دامعة كئيبه
فكأنها لم تلبس الاحلام في حلل قشيبه
لا النزل اصبح نزلها – بعد الرجوع – ولا الزريبه
وتحس بالريحان – ملء الروض – احساس الغريبه
فكأنها لم تذكِ صبوتها على وهج الشبيبه
وكأن روحاً من صباها ضاع منها في المصيبه
لا الشمس تبعثها على امل ، ولا الدنيا حبيبه
لكن اهل الريف ما برحوا يفون لها بطيبه
مولاتهم في حرمة الذكرى ، كمولاهم ، مهيبه
الآن عهدهمو بها دوماً على تلك العذوبه
من كان يسمع في الدجنة شجوها ... الا « اخاها » :

★

(همٌّ بصدري – ليت شعري – هل يقرُّ له قرارْ)
(لكأنني جُرعت – يا رباه – بالهمّ العقار)
(ما زال يقدح في الحشا ناراً تأجج فوق نار)
(حتى لو ان اضالعي انفرجت لطار له شرار)
(يا همّ ! مذ جاورت قلبي ما لليلته نهار)
(روّحت من زهري الشذى وخنقت في روضي الهزار)
(حتى مَ بالخفقان يؤذن ان عهدك غير سار)
(وتريد الا ان يحين ، اهكذا حق الجوار ؟)
(زل – ويك – غير مودّع ان كان لي فيك اختيار)
(او لا ، فزرْ غبّاً ، وحسبي شقوة بك ان ازار)
ويجيئها الزوج الكريم ولا يمس لها شفاها

★

في الصيف اقبل للتنزه في مزارعها ، مساءَ
حشدٌ توزعت المدينة ما يقوتهمو غلاء
لا يعملون لخيرهم او غيرهم الا رياء
يحدو بهم ربُّ الحدائق في الحدائق حيث شاء
ضاقت به الانفاس مثلهمو ، وأمّهمو الفضاء
فاذا الوجود كأنه كأس تدور بهم هناء
والريح ما اندى ! تحس ولا تحس بها ، رخاء
قد زان محفلهم مغنٍ ظلّ يطربهم غناء
حتى اذا وضعوا الكؤوس وما تشع به صفاء
واستقبلوا من لهوهم « جداً » يزيدهمو ارتخاء
اخذت نفوسهمو تملُّ حديثها ... الا شفاها

دار الحديثُ على الجمال و « رمزه » في الخافقينِ
فأجاب واحد فنه عن خبرة بالنهضتين :
« ما الحسنُ في « حواء » موقوفاً على ذين .. وذين ..
انظر الى تلك البليلة وهي تنسلُ باليدين
والماءُ يجري فوق كاهلها المقوّس كاللجين
حسناً كهذا في زوايا الارض لم تَرَ قط عيني
لا في الرُواء ، ولا الخطوط ، ولا اعتدال المنكبين
وانا الذي حيرتُ سني راحلاً في المشرقين »
فيُطيل – حيث أشار – صاحبنا التأمل ، كرتين
فيرى لأول مرةٍ حسن الحياة بناظرين
واذا بها ابنة عمه بالسدر تنسلُ ، لا سواها

★

ما كاد يبسط طالعُ القمرين فوق الارض نورَهْ
حتى رآته مقبلاً ، وكأنّ في يدها مصيره
قال « اسمعي! فاتحتُ زوجك امس فيك .. لأستخيره..
فرأيته متردداً والأمر أمرك بالضروره
وعليك حقٌّ للجمال ، وكنت منه على بصيره
أرجوك لا تذريه مثل الورد يذوي في الهجيره
إني ابنُ عمك ، لم تخنك عليَّ في الماضي سريره
عودي اليّ نعشْ معاً من أفقنا في خير جيره
قصرٌ اكونُ انا الخفيرَ له ، وانت به الاميره
فاذا حلا لك ، فاطلبي منه الطلاق ، فلن يضيره
ونعود كالنجمين ، نسطع للحضارة في دجاها ! »

★

فتبسّمت من قوله واستعرضت ذكرى مريرهْ
قالت « لعلك يا ابن عمٍّ نسيت اني ذات غيره
كم قال عمي : لا تحبي غير زوجك ، يا صغيره !
لا شأن لي في غيره ما دام لي في الحب خيره
إني رضيت به ، وإن تمضِ الشئون بنا حقيره
أما هواك ، فقد كفرت به كتاباً .. غير سوره(١)
والله ، لو امسى اليك البحرُ تخرط لي شذوره
وجعلت لي – في وسعه – ملكاً ، تبوّئني سريره
لرفضتُ بالحسنى عروضك لي ، وقد قبّحت سيره
وأبيت ان ألقاك – إلا مثل ما ألقاك – صوره!

***

بالأمس في هذا المكان جرحتَ من قلبي شعوره
ولقد أعيدُ عليك ما فوّهتنيه – بلا جريره :
خلّ الطريق ، فإنَ شأنك
غيرُ شاني .. في فضاها ! »

البحرين – **ابراهيم العريض**

(١) سورة البراءة .